الفصل الأول

في رحاب التفسير

سورة القلم

سورة القلم

سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية:

١- الرسالة، والشبهات التي أثارها كفار مكة حول دعوة النبي ﷺ

٢- قصة أصحاب الجنة (البستان)، لبيان بشاعة الكفر بنعم الله تعالى

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعد الله للفريقين المسلمين والمجرمين.

.....

قال الله عز وجل ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ*مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ*وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ*وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ*فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ*بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ*إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1]

المفردات.

﴿ن﴾ إما أن تكون أسماء للسور، أو قد أراد الله بها تحدي العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلغتهم

﴿القلم﴾ الذي يكتب به البشر ﴿ممنون﴾ مقطوع

﴿فستبصر﴾ فستعلم ﴿المفتون﴾ المجنون

١- الآيات ١-٨ من سورة القلم

أمة العلم.

يقسم الله سبحانه ـ ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ بالقلم وبالكتابة، فأما القسم فهو تشريف للقلم وللكتابة، سواء أكانت الكتابة به أو بغيره من الآلة الطابعة أو الراسمة أو غيرها من الأجهزة الحديثة مما تحصل بها الفائدة ويتشر به العلم، لأنه تعالى لم يقل والقلم وما يسطر وإنما قال ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فدل على أن المراد ما يخطه الكتبة من أنواع العلوم والمعارف، وهو تحفيز لهمة العرب المرسل للعتهم القرآن إلى تعلم الكتابة والقراءة والمنافسة في طلب العلم[1]، وإنما لإشارة منكرة لقيمة العلم في هذه الأمة، فوسط صراع الأفكار والعقائد والعادات والتقاليد برزت هذه القيمة في مهد الدعوة

قمة بشرية ودفاع إلهي

أقسم الله سبحانه ـ ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ليعفي عن رسوله ﷺ ذلك التهام بالجنون الذي رماه به المشركون، والذي هو أبعد ما يكون عن رسول الله ﷺ، فالذي رماه به إنما رماه عن حقد وكذب وافتراء، ولا يعتمد في اتهامه على أساس من عقل أو منطق، وقد يكون انتفاء هذا الاتهام مع العقل والمنطق هو سبب بدء الدفاع الإلهي عن النبي ﷺ بالقسم بأدوات العلم التي لا تنتمي عقولهم إلى أيٍّ منها

وهكذا أهل الباطل في كل زمان ومكان حيثما يعجز منطقهم وتفلس حجتهم أمام منطق وحجة أهل الحق من الدعاة المصلحين. فلا يجدون إلا أن يبذلوا ما في وسعهم للإساءة بالمصلحين وإلصاق التهم الباطلة بهم لصد الناس عنهم وعن صراط الله المستقيم

١- السيد عبد الله كنون، تفسير سور المفصل من القرآن الكريم، ص٢٢١

تسرية وتعويض:

ثم يأتي الإيناس والتسرية والتعويض من الله سبحانه لنبيه ﷺ عن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون فيقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أجرًا دائمًا موصولاً لا ينقطع ولا ينتهي، أجرًا عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم

شهادة من علام الغيوب:

ثم تأتي الشهادة من الله الكبير المتعال يسجلها في كتابه الكريم، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله على عِظم خُلق الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

وهذه اللفتة لها دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله، وإشارة إلى عظم ومكانة الأخلاق في الإسلام

والناظر في هذا الدين يجد العنصر الأخلاقي باررًا أصيلاً فيه، تقوم عليه أصوله التشريعية، وأصوله التهذيبية على السواء، يقول الرسول الكريم ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ"[رواه أحمد، الحديث٨٥٩٥] فيلخص رسالته في هذا الهدف السيل.

طمأنة .. ووعيد:

وبعد هذا الثناء الكريم من الله تعالى على نبيه ﷺ وهذه التسرية، يطمئنه الله تعالى ومن معه من المؤمنين على نتيجة صراعهم مع المشركين، وأن الغد سيكشف عن صدق النبي ﷺ وصدق ما جاء به، ويكشف زيف ما يدعيه مكذبوه وبطلانه فقال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ*بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ*إِنَّ

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٦، ص (٣٦٥٦،٣٦٥٧)

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وإن كان في ذلك ما يطمئن النبي ﷺ وكل من يسير على نهجه من المؤمنين فإنه يحمل في الوقت ذاته تهديدًا ووعيدًا يقلق أعداءه ويبعث في قلوبهم التوجس والقلق لما سيجيء.

******

قال الله ﷻ ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ*وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ*وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ*هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ*مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ*أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ*سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[1]

المفردات:

﴿ودوا﴾ تمنّوا
﴿تدهن﴾ تلين لهم في دينك
﴿فيدهنون﴾ يليون بالباطل
﴿حلاف﴾ كثير الحلف
﴿مهين﴾ حقير
﴿همار﴾ يعتاب الناس
﴿مشاء بنميم﴾ مشاء بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم
﴿معتد﴾ متجاوز للحد
﴿أثيم﴾ كثير الآثام
﴿عتل﴾ غليظ
﴿زنيم﴾ ملحق بقوم ليس منهم والمراد به ولد الزنى
﴿أساطير﴾ خرافات.
﴿نسمه على الخرطوم﴾ نجعل على أنفه علامة يُعَيَّر بها

١- الآيات ٨-١٦ من سورة القلم

لا مساومة لا مداهنة

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم، وهم مُرعرعتو العقيدة والتي يتظاهرون بالتصميم عليها إنهم على استعداد للتحلي عن الكثير منها في مقابل أن يتحلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويليّنوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر، لكي يدهن هو لهم ويلين، فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق. وإنما هم أصحاب طواهر يهمهم أن يستروها. ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ فهي المساومة إذن، والالتقاء في منتصف الطريق، كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير! فصاحب العقيدة لا يتحلى عن شيء منها، لأن الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير. إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحدًا، ولا يتحلى عن شيء منها أبدًا

إن صاحب العقيدة الصحيحة إذا تنازل عن جزء من دينه فقد تنازل عن حق ليس له حق التنازل عنه، وصاحب الباطل من دين أو غيره إذا تنازل فإنما يتنازل عن باطل أو جزء منه أو شيء ليس له فيه حق، وصاحب الحق إذا تنازل خسر، وهذا لا يرضاه عاقل، بل قد يقول أهل الباطل إذا شاركهم أهل الحق: لولا أنا على حق ما شاركونا فيه، فليحذر أهل الحق

حرب من الله:

وبعد أن رد القرآن ما رُمي به النبي ﷺ من افتراء باطل وأثبت له الخلق العظيم، يشن حملة صيد أحد من وقفوا في وجه الدعوة وسعى في الصد عن سبيل الله وكاد لرسولها ﷺ ولأصحابه، وهنا إنه الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق، حملة تعرية أمام نفسه تكشف عن حقيقته أمام

الآخرين، فيصفه القرآن بتسع صفات كلها ذميم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ثم يجيء تهديد ووعيد يلمس في نفسه موضع الاحتيال والغدر بالمال والبنين كما لمس وصفه من قبل موضع الاحتيال بمكانته ونسبه فقال تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾

******

قال الله ﷻ ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلَا يَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ* أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ* فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ* أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ* وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

المفردات

﴿ليصرمنها مصبحين﴾ ليقطعن ثمارها وقت الصباح.

﴿ولا يستثنون﴾ لم يقولوا إن شاء الله ﴿طائف﴾ آفة سماوية

﴿كالصريم﴾ كالليل المظلم ﴿اغدوا﴾ اذهبوا مبكرين

﴿صارمين﴾ يريدون القطع ﴿يتخافتون﴾ يخفون كلامهم.

﴿غدوا﴾ أصبحوا ﴿حرد﴾ قصد وقدره

---

١ - الآيات ١٧-٣٣ من سورة القلم

قصة أصحاب الجنة:

قال المفسرون. كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا جاء وقت الحصاد يدعو الفقراء فيعطيهم نصيبًا وافرًا منه ويكرمهم غاية الإكرام، فلما مات الأب ورثه أساؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نارًا على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا[1]

عاقبة البطر والمنع :

هذه هي سنة الله في خلقه، أن الحرمان من حسن العمل، ينسى الله نصيبهم، ومنعوا الخير عن فقراء الناس فمنع الله الخير عنهم، قال الله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2]، وقال جل شأنه. ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[3]، وإذا أيقن المؤمن هذه السنة الكونية

١- د. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، جـ٣، ص ٤٢٧

٢- الآية ١٨٠ من سورة آل عمران

٣- من الآية ١٢٣ من سورة النساء

في قلبه وعمل بمقتضاها علم أن المستفيد من إحسانه هو نفسه، وأن الخاسر من إساءته هو نفسه أيضًا، قال جل شأنه ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

وهذا كانت العظة والعبرة من قصة أصحاب الجنة ساقها الله لمن يعتبر، فالجزاء من جنس العمل ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

الأخذ على يد الظالم.

نلحظ من سياق القصة أن الأخ الأوسط كان له رأيًا غير رأيهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، ولكنه تابعهم عندما حالفوه في رأيه، ولم يصر على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم، وكان عليه أن يأخذ على أيديهم، وأدنى الإيمان في هذا الموقف أن ينكر بقلبه، وعلامته وشرطه أن يتركهم ولا يشاركهم في ظلمهم فقد قيل. "أرل المنكر فإن لم يزل فزلْ أنت عنه"، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن مسعود ﷺ.. "وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا"[رواه أبو داود، من الحديث ٣٧٧٤][2].

قال الله ﷻ. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ

١- الآية ٧ من سورة الإسراء

٢- قال الألباني ضعيف

كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[1]

المفردات:

﴿تدرسون﴾	تدعون	﴿تخيرون﴾	تشتهون وتطلبون
﴿أيمان﴾	عهود ومواثيق	﴿بالغة﴾	مؤكدة
﴿زعيم﴾	كفيل وضامن	﴿ترهقهم﴾	تغشاهم
﴿أملي لهم﴾	أمهلهم	﴿متين﴾	شديد لا يطاق
﴿مغرم﴾	بدل المال		

في ميزان الله:

يذكر الله تعالى المتقين المنعمين في جنات النعيم في مقابل المعذبين بسبب جرمهم فالمتقون لا يغشى وجوههم قتر ولا ذلة، وقد رفع الله من شأنهم، وأعلى من قدرهم، وكفى لها رفعة وعلوًا، وهذا ردٌّ على زعم المشركين إن صح أن نُبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا

وهذا حيف وظلم لا يليق بجلال الله ﷻ، فهو العدل وقد حرم الظلم

١- الآيات ٣٤-٥٢ من سورة القلم

على نفسه، فهل يستوي المسلم مع الكافر؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] هذا هو ميزان الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[2]

حال المجرمين أمام رب العالمين:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ فيوقفهم وجهًا لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين.

ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا"[رواه البخاري، الحديث ٤٥٣٨]، وهذا إما لأن وقته قد فات، وإما لأن أجسامهم وأعصابهم تكون مضطربة من الهول على غير إرادة منهم.

ثم يكمل رسم هيئتهم: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ هؤلاء المتكبرون المتجبرون وبينما هم في هذا الموقف المرهق الذليل، يُذكّرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾

١- الآية ٤٠ من سورة النساء

٢- الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

قادرون على السجود فكانوا يستكبرون، وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون!

وبينما هم في هذا الكرب، يحيثهم التهديد الرهيب الذي يهد القلوب ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف! أيُّ هول مزلزل للمكذبين! وأيُّ طمأنينة للنبي والمؤمنين المستضعفين! ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

وإن شأن المكذبين، وأهل الأرض أجمعين، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير، ولكنه -سبحانه- يخدرهم بنفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان، إنه سبحانه يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته

موقف عجيب:

وفي ظل مشهد القيامة المكروب وفي ظل هذا التهديد يكمل الجدل والتحدي والتعجب من موقفهم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ فهل تلتمس منهم ثوابًا ومقابلاً على ما تدعوهم إليه من الإيمان، فهم من غرامة ذلك مثقلون، فيدفعهم ذلك التوهم بالغرم إلى الإعراض والتكذيب، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع في الآخرة، على هذا الغرم المتوهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أم إنهم على ثقة مما في الغيب، فلا يخيفهم ما يتطرهم فيه، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه، أو أنهم هم الذين كتبوا ما

فيه فكتموه صامتًا لما يشتهون، ولا هذا ولا ذاك، فما لهم يقفون هذا الموقف العريب المريب ؟!

قال الله ﷻ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿صاحب الحوت﴾ يونس عليه السلام ﴿مكظوم﴾ مملوء غمًّا.

﴿نبذ﴾ طرح وترك ﴿العراء﴾ الفضاء الواسع

﴿ليزلقونك بأبصارهم﴾ يطرحونك إليك بنظرة عيظ وحقد

صبر الدعاة

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيَّه إلى الصبر على تكاليف الرسالة، ويُذكِّره بتجربة أخ له من قبل حين كذَّبه قومه، قال الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي لا تكن كيونس عليه السلام مستعجل القضاء قبل مجيء أوانه، إذ عجل يونس فضاق بتكذيب قومه له فتركهم ومضى عاصيًا يريد فراقهم، وحين ركب السفينة فاقترعوا ليطهر أيهم هرب من سيده فجرت القرعة على يونس عليه السلام فألقوه في الماء فالتقمه حوت فنادى ربه ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ

الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

إن مشقة الدعاة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته، وفي الطريق مشقات كثيرة مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء[2] والعناء، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المرهو المنتصر فيما تراه العيون، ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق، وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق، أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها وقدر أنه هو الذي يتولاها[3] إنه نعم المولى ونعم النصير

١- الآيتان ٨٧،٨٨ من سورة الأنبياء، وانظر تفسير فتح الرحمن، جـ ٧، ص ٣٧٤٤

٢- أي التواء النفوس وإعراضها عن قبول الحق

٣- انظر في ظلال القرآن، جـ٦، ص ٣٦٧١